نوّار نيسان..
ضحك ولعب وجد وحب

شيرين العكة

تحت سقفٍ من السماء، وفي حضرة البحر والرمل، هبّت نسائم نيسان محمّلة بالحب والورد الذي تفتّح على وجنات أطفال غزة ومدرسيهم ممن شاركوهم اللعب والفرح؛ في تجمّع موشّى بألوان قوس قزح، اتخذ من «إحنّا والبحر» عنواناً له.

يُقام مهرجان الطفل «نوار نيسان» لهذا العام في رام الله وغزة وحيفا، بمبادرة من مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، وبلدية رام الله، وتُشارك فيه مؤسسة عبد المحسن القطان. استوحى المهرجان برنامجه الفني من البحر، فقد طبّق الطلاب بمساعدة مدرسيهم العديد من الأنشطة التي اتخذت مكونات البحر مادةً لها، كتصميم حوض السمك، والإكسسوار المُكوّن من الصدف، وإنشاء مجسم لميناء غزة مزين بالألوان والصدف والشبك والقوارب المصنّعة من مادة الفلّين.

اليافطات الملونة التي تحمل رسومات للبحر والأطفال، كذلك الفقرات المتنوعة والنشيد الذي صدح في أرجاء المكان، جميعها كانت عامل جذب للكثير من الزوّار، سواء من فئة الطلاب وغيرهم، فقد شرّع المهرجان أبوابه للجميع، ما أتاح مشاركة أوسع وتعاون عالٍ في إنجاز الأنشطة ورسم الجدارية التي اجتمع عليها الصغار والكبار.

البحر مادة

في إحدى زوايا المهرجان امتلأت طاولة بصنوف الخرز والصدف والشرائط الملونة، تتوسط هذه الطاولة فتاة في الصف الثامن اسمها زينة رزق من مدرسة بنات غزة الإعدادية (ب)، كانت تتناول الخيوط الدقيقة أمام أعين المتفرجين وتتولى رص الخرز والصدف داخلها بترتيب معين، مُشكلةً بذلك أساور وإكسسوار بمقاسات وأحجام مختلفة.

قالت زينة «تعرف معلماتي أن صناعة الإكسسوار هي هوايتي المفضلة، لذا عُرضت علي المشاركة في تعليم زميلاتي على هذه المهارة». وأضافت «لديَّ في المنزل صندوق كبير أحتفظ فيه بأعمالي التي أنجزتها في سنوات سابقة، وتزداد سعادتي كلما أضفت شيئاً إلى صندوقي الكبير»، معتبرةً أنه من الضروري وجود هواية لدى الإنسان يمارسها إلى جانب دراسته.

وبحسب الفتاة ذات الأنامل الماهرة؛ فإن والدتها وهي مديرة مدرسة، تشجعها على تطوير مهارتها في صُنع الحلي وتوفر لها كل جديد من المواد الخام، وفي ذلك إشارة إلى اهتمام الأم بتعزيز جوانب أخرى لدى ابنتها، بعيداً عن الدراسة والكتب، وهذا ما يحتاج إليه الأطفال واليافعون، ألا يُحاصروا داخل سور المدرسة وشنطة الكتب.

ميس الريم ورزان وأريج وسارة طالبات من الصف السابع كنَّ يتنقلن بين الأنشطة بمرح، قالوا إنهن ساعدن معلمتهن في صنع أحواض السمك وتلوين الأحجار، كما كانت لهنَّ الحرية في مشاركة أنشطة مختلفة، كألعاب تيلي ماتش، ورسم الجدارية، إضافة إلى مشاهدة الدبكة ورقص الأطفال على نشيد «نحن الربيع».

قالت ميس متحمسة «أنا سعيدة لأنني لعبت مع صديقاتي في الفصل، إضافة إلى مشاركة فتيات من مدارس أخرى لم ألتقِ بهن من قبل»، وقاطعتها أريج بصوت بين الضحك والصراخ، قائلة «أول مرة أحصل على فرصة ترفيهية مثل هذه، وقد تعاونَّا مع معلماتنا على صنع الأحواض، وهذه المرة الأولى التي استخدم فيها ألواناً جميلة بأشكال وأحجام متعددة»، وقالت الصديقات الأربع بمكر وكأنهن مُقدِمات على فعل شَقي «لا نريد العودة إلى المدرسة قريباً، نريد أن نبقى هنا، نريد أن يستمر المهرجان طويلاً».

يبدو أن أجواء المهرجان تروق الصديقات الأربع، بينما لا يوددن الرجوع إلى المدرسة والتقيّد بقوانينها وأنظمتها

ولو بشكل مؤقّت، يرغب الطلاب في الترويح عن أنفسهم بالأنشطة واللعب، من قال إن اللعب ليس أسلوباً للتعلم؟! وقد يكون أكثر فعالية من الأساليب التقليدية، وهذا ما يجب على المدرسين ملاحظته، أن يكتشفوا الطريق الأقرب إلى ذهن طلابهم.

إلى الجوار من مجسم لميناء غزة البحري، تقف فتاه ذات بشرة بيضاء لوّحتها أشعة الشمس، اسمها لينا حمدونة في الصف الثامن وقد رافقتها والدتها، المجسم مكوّن من أرضية نايلون ملونة بالأزرق، توزعت على متنه قوارب صيد مصنوعة من الفالين الأحمر والأصفر والأخضر، بينما تحوطه صخور وبيوت ومساجد من الإسفنج.

أخبرتنا لينا أن والدها هو من تولى توفير مكونات الميناء، وصمم الإسفنج بأشكال مختلفة كما قام بتلوينه، والدة لينا قالت «يوجد مجسم مماثل له في البيت، صنعناه سوياً وبالخامات نفسها تقريباً»، وعن سبب اهتمامها وزوجها بهذا النشاط، أفادت بأنهما أرادا تشجيع ابنتهما وحثّها على تبني الأفكار الإبداعية. وأردفت مؤكدة «ليس من المنطقي أن نطالبها بالدراسة طوال الوقت، لا بد من مشاركتها للأنشطة الترفيهية والمفيدة لتوفير جو سعيد لها ولأخوتها كذلك».

وأشارت طالبة الصف الثامن إلى أن أهمية تطبيق هذه الأنشطة ليس في المدرسة فحسب، فهي ترى أن هذه الأنشطة تعبر عن الأطفال وتسعدهم أيضاً، وقالت «صحيح أننا في حرب وحصار، لكن علينا التفكير بحرية، والتعبير عن أفكارنا بأي طريقة جميلة ومتاحة».

والدا لينا أدركا الحقيقة مبكراً، لينا وهي أكبر أخوتها يتم تشجيعها من قبل والديها على التفكير بطريقة مختلفة وتلبية احتياجاتها حتى يبعثا السرور في نفسها، وسينعكس ذلك بالتأكيد على أدائها وتحصيلها العلمي، كذلك أخوتها سيتم التعامل معهم بالطريقة نفسها، وهذا ما أكدت عليه والدتها بقولها «ليس من المنطقي أن نطالبها بالدراسة طوال الوقت».

إيجابي

راتب أبو غالي هو ولي أمر طالبتين من مدرسة المأمونية كانتا تتخذان استراحة محارب بعد أن شاركتا في رسم وتلوين السمك والصدف ورسم الجدارية للبحر. عن مشاركة طفلتيه في مهرجان نوار نيسان قال «سعيدٌ بهذا النهج الذي تتبعه المدارس بدعم من «القطان»، لما له من تأثير إيجابي على شخصية الطالبات وتقوية قدراتهن في مجالات متعددة تقودنا للكشف عن مواهب أطفالنا واهتماماتهم».

ولفت أبو غالي إلى أن النافورة هي أكثر الأنشطة التي أُعجب بها، لاعتمادها على الذكاء والابتكار من المواد البسيطة، وأثنى على جهود «القطان» في دعم الأنشطة الترفيهية، مؤكداً على ضرورة تكرار هذه التجربة.

وتتفق معه عايدة الشوا، فقد حازت النافورة على إعجابها، وحضرت الشوا للمهرجان لمشاهدة طفلتها وهي تقدم عرضاً مسرحياً تدربت عليه مسبقاً في مدرستها المأمونية، قالت «طفلتي لديها موهبة التمثيل، وأهتم بتشجيعها لتشارك فيما يناسب قدراتها»، ولاحظت الأم تأثير المهرجان والمشاركة فيه على ابنتها، فبحسب الأم استيقظت الطفلة في الصباح الباكر كي تجهز نفسها وتسرح شعرها، كانت سعيدة وتبتسم للمرآة كأنها على موعدٍ مع رحلة ترفيهية.

إنشاء النافورة كانت مشاركة من مدرسة ذكور الرمال الإعدادية، وهي فكرة تولى تجهيزها وتدريب الأطفال عليها المعلّم أحمد أبو طاحون، مستخدماً الأدوات المحلية المتوفرة كالفخار، والبوص، والقصب المجوّف، والماء، وموتور صغير، وخرطوم دقيق، وكهرباء، والزلف والصدف للزينة.

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

يقص أبو طاحون القصب بمقاسات معينة، ويثبتها في الفخّار بالاستعانة بمادة لاصقة، ويثبت الموتور حتى يدفع الماء داخل الخرطوم، هذه المكونات بالطبع لا يلاحظها المشاهد، فهي مغطّاه بصدف البحر، ما يوقعك في شرك الحيرة، كيف يخرج الماء من القصب ويندلق على الصدف ويعود كرّة أخرى مشكلاً نموذجاً لنافورة صغيرة؟

علاقات أكثر عمقاً

«هذه الفكرة وجدتها أثناء بحثي على الإنترنت، فمن وقت إلى آخر أحاول الحصول على أنشطة لا منهجية تحفّز الطلاب وتُخرجهم من الروتين اليومي للدراسة»، قال أبو طاحون وبيّن أنه على مدار الأيام الثلاثة للمهرجان تواجد برفقه أربعة من طلابه هم محمود، وأمجد، وتوفيق، وفوزي، فكانت فرصةً للتقرب من طلابه، وتكوين الصداقة التي قد نشأت بالفعل فيما بينهم.

وشبّه إعداده للمواد اللازمة لصناعة النافورة بـ «المعركة»، فقد سعى إلى توفير القصب الذي كان بأحجام كبيرة ومليئاً بالزوائد والقشور، وبلغ طول القصبة الواحدة سبعة أمتار، ما سبب مشكلة لديه، حيث يصعب إدخالها إلى المنزل، ما دفعه لربطها بحبل وسحبها من خلال النافذة وسط تساؤل الجيران وتعجبهم، ماذا سيفعل معلّم مادة التكنولوجيا بهذا القصب؟

الإجابة أن أحمد أبو طاحون حاول فعل شيء مختلف لطلابه، يجذبهم ويكسر الجمود الذي خلّفته المناهج والدروس الطويلة، فتطبيق نشاط النافورة لم يقتصر على من حضروا المهرجان، بل شاركه بقيّة طلابه في المدرسة أيضاً، هذا النشاط الذي اتّسم بالخفة وحاجته إلى الروح التعاونية لإنجازه، انعكس على علاقة أبو طاحون بطلابه، فقد تقرّب إليهم عبر مدى أبعد ما يكون عن الكراسة والسبورة.

المعلّمة علا وادي كذلك شاركت مع طالباتها من مدرسة بنات غزة الإعدادية، وقد لاحظت أن المهرجان انعكس على نفسيتهن وجعلهن سعيدات، فهي ترى بأنها تقربت من طالباتها وتعرفت على احتياجاتهن، قالت «يوجد لديَّ في الفصل طالبة قليلة الكلام وغير ودودة، لكن من خلال تفاعلها مع الرسم واللعب استطعت اكتشاف شخصيتها الجميلة المختبئة وستصبح الآن من طالباتي المقربات، فقد بتُّ أفهمها أكثر».

علا هي مدرسة علوم، حاولت أن توظف مكونات البحر لدعم مادتها وجعلها أكثر سهولة، فكان نشاطها يتناول حياة الكائنات البحرية، أنواعها وأشكالها وظروف نشأتها، واختارت لتنفيذ النشاط مجموعة من طالباتها ذوات التحصيل المتوسط والمشاركة المحدودة في الفصل، راميةً بذلك إلى تشجيعهن على حب المادة وفهمها من خلال الأدوات الفنية.

وجرت العادة أن يتم اختيار الطالبات المتفوقات للمشاركة في الأنشطة داخل المدرسة وخارجها، لكن «أبو وادي» أفادت بأن الوقت أثبت لها عكس ما هو معمول به، فقد أظهرت هؤلاء الطالبات الحماس والتفاني الشديد أثناء الإعداد للمهرجان، ما يعني توفر الطاقة الإيجابية داخلهن وحاجتهن لمن يتلمس هذه الطاقة ويعطيها الإشارة للبدء.

لقد أتاح المهرجان الفرصة للمعلمة «أبو وادي» أن تجد العلاج الأمثل لمعالجة ضعف بعض الطالبات، ولاحقاً ستكتشف أن هؤلاء الطالبات قد حصلن على درجات جيدة في الامتحانات النهائية، والسبب أن طريقة غير مباشرة كمشاركتهن في المهرجان صدّعت الجمود والخوف لديهن، وعززت ثقتهن بأنفسهن، ما انعكس على تحصيلهن العلمي.

في زاوية أخرى من المهرجان كانت المعلّمة غادة كردية تتوسط طالباتها من مدرسة بنات الزيتون الإعدادية (ب) تُشرف

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

عليهن برفقة الفنان أحمد السحار الذي سبق وأن علمهن على كيفية تلوين رمل البحر وتخزينه بطريقة فنية داخل علب الزجاج، إضافة إلى إيداع رسالة صغيرة داخل كل علبة، تحتوي هذه الرسالة على سؤال يتعلق بالبحر.

قالت أبو كردية «أهمية عملنا أنه يقوم على إعادة تدوير مخلفات الزجاج والورق، للاستفادة منها والمحافظة على البيئة في الوقت نفسه»، وبينت أن هذه الأنشطة تساعد في تحفيز الطالبات ليصيروا مبادرات، عدا عن كونها أداة لتفريغ الانفعال واكتشاف ما يعتمل داخلهن، ويجدر الإشارة إلى أن أغلب المواد قام بجمعها وتوفيرها للمهرجان الطالبات أنفسهن.

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

طالبات المعلمة كردية نادراً ما كُن يتركن الركن الخاص بهن، فقد احتاج تلوين الرمل وإضافته إلى الزجاج تعاوناً وحرصاً كبيرين، إضافة إلى أن معلمتهن تتمتع بابتسامة جميلة ورحابة صدر في تعاملها وصبرها عليهن. وبالإشارة إلى حضور الفنان السحار لتعليم الطالبات، فإن دل ذلك إنما يدل على حرص هذه المعلمة على إكساب طالبتها ما هو أكثر من الدروس المكدّسة في الكتب، فالمعّلم حين يُعطي طلابه، فإن عطاءه لا تحده الحدود.

مداد الخيال

المعلمة عبير المدهون حين قررت المشاركة في المهرجان توجهت إلى طالباتها تسألهن «ماذا يعني البحر؟»، فبحسبها أرادت أن تُحقق عصفاً ذهنياً لهنَّ يأتي بعد إطلاق العنان للتفكير والحوار.

تفاعلت الطالبات مع معلمتهن، واهتدين إلى فكرة تصميم صندوق البحر الذي يضمر في داخله رسائل وحكايات الناس وأسرارهم أيضاً. استمرت الطالبات في الإعلان عما يجول في خاطرهن، حتى أنهن تخيلن قصصاً حول الصياد رفيق البحر والحورية التي تشكلَ حول توطنها للبحر الكثير من الأسرار والأسئلة.

قالت المدهون «بعد استماعي لهن توقفت مندهشة أمام مداد الخيال، فكل المكنات كانت متاحة، وكل ما سردته الطالبات كان يحمل قصصاً إنسانية عميقة يمكن توثيقها بالكتابة»، وأشارت إلى أن هذه الطريقة هي ما يجب أن يبحث عنها المعلمون، أن يصبح العلم تفاعلياً تشاركياً وليس مجرد طريقة نمطية تعتمد على التلقين.

مخطئ من يعتقد أن وظيفة المعلم تلقين الطلاب محتوى كتبهم المدرسية، والهدف هو الحصول على الدرجات فحسب، فالمعلم كيان من مشاعر وأحاسيس، إنسان وليس آلة يتوجب عليها السير وفق تعليمات صارمة، المعلمة المدهون أنصتت للإنسانية التي نزفت من أخيلة طالبتها، دونتها وحققتها حتى أصبح الصندوق واقعاً، نعم لقد حوطته الطالبات يوم نوّار نيسان بعد أن أودعن داخله كنوز بنات أفكارهن.

محمد سهمود أحد المنشطين الذي تطوعوا في مهرجان نوّار نيسان، عن سبب مشاركته قال: «بحكم عملي كصحافي أفضلُ الاندماج مع فئات المجتمع المختلفة، وبخاصة الأطفال، لما يمتلكونه من براءة وأفكار إبداعية خلاقة لا يتم اكتشافها إلا بملاحظة تحركاتهم أثناء اللعب».

ساهم محمد بكاميرته في التقاط الصور على مدار أيام المهرجان، منبهاً إلى أنه حاول تسجيل أجمل اللحظات التي تميزت ببراءة الأطفال وحيويتهم دون تدخله في صنعها، فالصورة الطبيعية والعفوية بالنسبة له أقرب إلى التصديق، وبالتالي أقرب إلى القلب.

صحافية متطوعة في نوار نيسان